السياسة البريطانية نحو مسألة الحج

قراءة في وثيقة جون سلايت

British Policy Towards the Question of Hajj: A Reading of John Slight's Document

أحمد غنيمة

Ahmed Renima

جامعة وهران 1 أحمد بن بلّة - الجزائر

Email: ahm.renima99@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/02/17 تاريخ القبول: 2026/03/21 تاريخ النشر: 2026/07/21

ملخص

تتناول هذه الورقة مسألة الحج باعتباره ليس مجرد شعيرة دينية فردية، بل حدثًا سنويًا عالميًا ذا أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية. يشير النص إلى أن طرق الحج ساهمت منذ العصور الوسطى في تعزيز التجارة البحرية من خلال تحرك آلاف الحجاج والتجار عبر السواحل.

مع توسع الاستعمار الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين، أصبح الحجاج المسلمون (خاصة من الهند وجنوب شرق آسيا وأفريقيا) يتحركون عبر شبكات بحرية خاضعة للمراقبة الأوروبية. استخدمت القوى الاستعمارية المخاوف الصحية (الأوبئة) كذريعة لفرض أنظمة الحجر الصحي، وراقبت الحجاج خوفًا من انتقال الأفكار المناهضة للاستعمار عبر شبكات عموم الإسلام.

إشكالية الورقة: كيف تعاملت بريطانيا مع الحج كظاهرة دينية جماعية؟ وما حدود قدرتها على السيطرة عليها؟ وما أشكال المقاومة التي واجهتها؟

المصدر الأساسي: فصل من كتاب جون سلايت The Hajj and Britain's Muslim Empire، مع التركيز على دراسة حالة الحجاج الفقراء في الهند ودور الموظفين المسلمين في القنصلية البريطانية بجدة.

الكلمات المفتاحية:

الحج، بريطانيا، الاستعمار، مقاومة الاستعمار، جدة، الهند، مكّة، الحجاج الفقراء.

Abstract:

This introduction examines the Hajj as more than an individual religious obligation; rather, it positions it as an annual global phenomenon carrying political, social, economic, and intellectual dimensions. Since the medieval period, Hajj routes played a significant role in fostering maritime trade, as thousands of pilgrims and travelers moved along coastlines, exchanging goods. With the expansion of European colonial powers during the nineteenth and twentieth centuries, Muslim pilgrims—particularly from India, Southeast Asia, and Africa—traveled through maritime networks that came under increasing European surveillance. Colonial authorities exploited health concerns and epidemics as a pretext to impose quarantine regulations, while simultaneously monitoring pilgrims out of fear that anti-colonial ideas might spread through Pan-Islamic networks.

Consequently, this study raises the following central questions: How did Britain deal with the Hajj as a collective religious phenomenon? What were the limits of its ability to control it? And what forms of resistance did it encounter?

Primary Source: A chapter from John Slight's The Hajj and Britain's Muslim Empire, with particular focus on the case study of poor pilgrims in India and the role of Muslim employees serving in the British consulate in Jeddah.

Keywords: Hajj, Britain, Colonialism, Anti-colonial resistance, Jeddah, India, Mecca, Poor pilgrims.

مقدمة

يمثل الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة أحد أهم الشعائر الدينية في الإسلام، لكنه لم يكن مجرد رحلة روحانية فردية؛ بل كان حدثًا سنويًا عالميًا حمل أبعادًا سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية عبر التاريخ. فمنذ العصور الوسطى، أسهمت طرق الحج في تعزيز التجارة البحرية، حيث كان آلاف الحجاج والتجار يسافرون عبر السواحل ويتوقفون في الموانئ لتبادل السلع، وهذا البعد العالمي للحج هو ما جعله محط اهتمام القوى الأوروبية الاستعمارية التي رأت فيه مجالاً للتوسع والنفوذ، وفي الوقت نفسه تهديدًا محتملاً لمصالحها.

ومع توسع القوى الاستعمارية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، أصبح الحجاج المسلمون، وخاصة في مستعمرات الهند وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، يتحركون عبر شبكات بحرية خضعت للمراقبة الأوروبية المتزايدة. فقد سعت القوى الاستعمارية إلى فرض سيطرتها على طرق الحج، مستخدمة مخاوف صحية تتعلق بالأوبئة كذريعة لفرض أنظمة الحجر الصحي، وفي الوقت نفسه

كانت تراقب الحجاج خوفًا من انتقال الأفكار المناهضة للاستعمار عبر شبكات عموم الإسلام.

تتناول ورقة البحث هذه طبيعة العلاقة بين بريطانيا[1]، وبين ظاهرة الحج كرحلة دينية نسكية واقتصادية واجتماعية وسياسية ومعرفية ثقافية في الفترة الاستعمارية. وتنطلق من إشكالية مركزية تتمثل في التساؤل التالي:

كيف تعاملت بريطانيا مع الحج بوصفه ظاهرة دينية جماعية، وما هي حدود قدرتها على السيطرة عليها؟ وما هي أشكال المقاومة والمناهضة التي واجهتها من قبل المسلمين، سواء من داخل الأجهزة الاستعمارية أو من خارجها؟

تستند هذه الورقة بشكل رئيس إلى وثيقة أساسية تتمثل في فصل من كتاب جون سلايت[2] *The Hajj and Britain's Muslim Empire*، والذي يركز على العلاقة البريطانية بالحج من خلال دراسة حالة الحجاج الفقراء في الهند ودور الموظفين المسلمين في القنصلية البريطانية بجدة. ونظرا لاتساع الموضوع وتشعبه، فإنّ دراسة حالة بريطانيا من خلال هذه سيكون مختصرا وفق المنهاج التاريخي التحليلي.

1. التوسع الأوروبي والصراع على طرق الحج

- البرتغاليون والتهديد المبكر

[1] - **بريطانيا**: لم تكن بريطانيا إمبراطورية بالاسم القانوني الرسمي إطلاقا. الاستثناء الوحيد هو لقب "إمبراطور الهند"، الذي جعل التاج البريطاني يحمل صفة إمبراطورية مجازية جزئية، لا شاملة. وهي تسمى رسميا منذ عام 1927م باسم **"المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى و أيرلندا الشمالية**، بعد ما مرت بعدة تسميات من مملكة إنجلترا حتى سنة 1707، **مملكة بريطانيا العظمى.**

[2] - **جون سلايت:** مؤرخ بريطاني، حاصل على الدكتوراه من جامعة كامبريدج، محاضر في تاريخ الإسلام بجامعة سانت أندروز. من أبرز أعماله: John, Slight. *The British Empire and the Hajj: 1865–1956*. Harvard University Press, 2015.

تعود الجذور التاريخية للتدخل الأوروبي في الحج إلى القرن السادس عشر مع وصول البرتغاليين[3] إلى المحيط الهندي. فقد أدخل البرتغاليون نوعًا جديدًا من السيطرة المسلحة على المياه، مستهدفين السفن التي تقل الحجاج. ففي عام 1502، استولى البرتغاليون على سفينة كبيرة كانت تقل 200 من أفراد الطاقم بالإضافة إلى عدد كبير من الحجاج، وكانت هذه الهجمات تندرج ضمن محاولاتهم لمراقبة مدخل البحر الأحمر ومنع "الحج إلى بيت الله الحرام".(Ryad, 2017, p. 3)

ويشير عمر رياض إلى أن هذه الفترة كانت "عصر صراع محتدم" في الهند والمحيط الهندي، حيث حملت السفن الإسلامية مجاهدين متطوعين لمقاومة الهجمات البرتغالية على البحر الأحمر وخليج عدن والخليج العربي. كما عانى العثمانيون من صعوبات في التعامل مع شكاوى المسلمين الذين لم يتمكنوا من أداء فريضتهم بسبب هجمات المسيحيين في البحر.(Ryad, 2017)

- **القنصليات الأوروبية في جدة**

مع تطور المصالح الأوروبية في المنطقة، أصبحت جدة مركزًا للوجود القنصلي الأوروبي. فبحلول عام 1832، عُين وكيل لشركة الهند الشرقية البريطانية في جدة، تلتها القنصلية الفرنسية عام 1839، ثم الهولندية بين عامي 1869-1872، والنمساوية عام 1880، والروسية عام 1891(Freitag, 2012) ، ومع ذلك، وتشير معظم الدراسات إلى أن القناصل الأوروبيين في جدة كانوا يتمتعون بقوة ونفوذ أقل مقارنة بمناطق أخرى من الخلافة العثمانية، بسبب المكانة الدينية الخاصة لجدة باعتبارها بوابة الحرمين الشريفين.

[3] - **البرتغال**: على الرغم من التوسع الاستعماري الكبير الذي قادته مملكة البرتغال منذ تأسيسها سنة 1139م إلى غاية إعلان الجمهورية البرتغالية الأولى 1910م. لم تعلن نفسها إمبراطورية بشكل رسمي.

وقد تأسست هذه القنصليات بشكل رئيس لخدمة مصالح الرعايا المسلمين القادمين من المستعمرات الأوروبية، بالإضافة إلى المصالح التجارية. فبحلول عام 1897، شكل الرعايا البريطانيون ومعظمهم من المسلمين الهنود حوالي سبع سكان الحجاز، مع وجود أكثر من 300 عائلة هندية في جدة وحدها.Slight, 2017

2. بريطانيا والسلطنات الإسلامية

- الهند كنموذج مركزي

كانت بريطانيا تمتلك أكبر عدد من الرعايا المسلمين في الهند، حيث شكل الهنود أكبر عدد من الحجاج القادمين من خارج الجزيرة العربية إلى جانب المصريين والإندونيسيين .Slight, 2017 ومع نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت رحلات آلاف الحجاج الهنود[4] السنوية إلى مكة ظاهرة مستديمة في الإدارة الاستعمارية البريطانية، سواء في الهند أو من خلال قنصلياتها في الجزيرة العربية.

ويؤكد سلايت في كتابه الموسع *The British Empire and the Hajj* أن الهند كانت تمثل "قلب الامة الإسلامية البريطانية" من حيث عدد الحجاج والتحديات الإدارية التي فرضتها هذه الحركة السنوية. فالهند وحدها كانت تبعث بعشرات الآلاف من الحجاج كل عام، مما استدعى إنشاء أجهزة إدارية متخصصة مثل

[4] - الهند: حاليا جمهورية في جنوب أسيا واسعة جغرافيا وكثيفة سكانيا، كانت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تضمّ عدا من السلطنات والإمارات والكيانات السياسية بعضها تابع والبعض الاخر مستقل. مثل مملكة ماراثا ضمن نظام اتحادي وهي القوة الهندية الأبرز بعد 1707؛ توسّعت في عهد البيشوا باجي راو الأول حتى امتدت من هضبة الدكن وبيشاور وبنغال، ثم تراجعت بعد الحروب مع الإنجليز (1805–1818). وهنناك سلطنة مغول الهند بقايا الدولة المغولية القديمة: استمرت رمزيًا بعد 1707 مع تقلّص نفوذها؛ تعرّضت لضربات كبرى مثل حملة نادر شاه 1739 من بلاد فارس ثم تحت البريطانيين حتى خلع بهادر شاه الثاني عام 1857م. إضافة إلى دولة حيدر آباد التي ضلت أكبر وأغنى دولة أميرية في الدكن وشريكًا محوريًا للبريطانيين منذ اتفاق 1798 حتى منتصف القرن. مع أوائل القرن 19 رسّخ البريطانيون نظام "الولايات الأميرية" حيث احتفظ عشرات الحكام المحليين بالعرش الداخلي مقابل السيادة البريطانية، مع بقاء دلهي عاصمة رمزّية حتى 1857م.

"حامي الحجاج" Protector of Pilgrims الذي عين في مدينة بومباي (Slight, 2015, p. 45) .

- **الوجود البريطاني في الحجاز**

يبدو أن الوجود البريطاني في الحجاز قد ازداد قوة بحلول عام 1897، حيث شكل الرعايا البريطانيون من المسلمين المستعمرين حوالي سبع سكان الحجاز، مع وجود أكثر من 300 عائلة في جدة وحدها، وبلغت نسبة التجارة في أيديهم أكثر من 50٪. ويعود هذا الوجود إلى سلسلة من التطورات التاريخية بدأت مع الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، والتي دفعت البريطانيين إلى تعزيز وجودهم في البحر الأحمر لحماية طريق الهند.(Slight, 2017)

- **مخاوف بريطانيا من الحج**

تعددت المخاوف البريطانية من الحج لتشمل:

- **الأوبئة** :خاصة الكوليرا التي ظهرت في الجزيرة العربية عام 1821 وانتشرت في الحجاز عام 1831، مما أسفر عن وفاة 20 ألف شخص (Tagliacozzo, 2013) وفي عام 1865، كان الوباء شديدًا لدرجة أن آثاره وصلت إلى أوروبا وغرب الولايات المتحدة.
- **الأنشطة السياسية** :خشي المسؤولون البريطانيون من أن يصبح الحج منصة لنشاطات معادية للاستعمار، خاصة في أعقاب ثورة عام 1857م بالهند.
- **الشبكات الإسلامية** :حيث شكلت مكة والمدينة مراكز تعليمية دينية يمكن أن تنقل أفكارًا مناهضة للاستعمار إلى المستعمرات.

بحلول مطلع القرن العشرين، تحولت هذه المخاوف إلى مراقبة متزايدة للحجاج بسبب الخوف المتنامي من "الجهاد والتطرف" -حسب تعبير السلطات البريطانية- مما أدى إلى ما يمكن تسميته "تطبيب مكةMedicalizing Mecca " من قبل القوى الأوروبية.

3. الحجاج الفقراء كحالة دراسية

- **عجز الإدارة البريطانية**

يركز سلايت في دراسته على فئة الحجاج الفقراء الذين كانوا يمثلون تحديًا إداريًا كبيرًا للإدارة البريطانية. فبعد انتهاء موسم الحج كل عام، كان يبقى عدد من هؤلاء الحجاج عالقين في جدة دون وسيلة للعودة إلى ديارهم. ورغم محاولات السلطات البريطانية في الهند وجدة معالجة هذه القضية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، إلا أنها لم تنجح في وضع سياسة واضحة وحازمة للتعامل معهم. وقد وصفها بأنها "رمزية للعلاقة البريطانية مع الحج"، حيث كانت بريطانيا عاجزة ببساطة عن ممارسة السيطرة على هذه الفئة. وقد اتسمت السياسة البريطانية بالتناقض وعدم اليقين، حيث كان هناك رغبة في بسط السيطرة إلى جانب عجز شبه كامل عن تنفيذ إجراءات إدارية فعالة.

وتشير دراسة سلايت إلى أن هذه الفئة من "الحجاج المعوزين" كانت تمثل تحديًا خاصًا لأنها تجمع بين الهشاشة الاقتصادية والقدرة على التحرك عبر الحدود، مما يجعلها عصية على التصنيف الإداري الاستعماري. وقد أنتجت الإدارة البريطانية كمًا هائلاً من المعلومات حول هؤلاء الحجاج، غالبًا ما كانت متضاربة، مما يعكس الارتباك الإداري إزاء هذه الظاهرة. (Slight, 2017).

- **مساهمة الموظفين المسلمين**

كما أبرز سلايت ميشرا (Mishra, 2011) أيضا الاسهام المحوري الذي مارسه الموظفون المسلمون في القنصلية البريطانية بجدة. فقد كان لهؤلاء الرجال مساهمة

فعالة في معالجة قضية الحجاج الفقراء، وساهموا في تشكيل الجهاز الإداري البريطاني المتعلق بالحج من خلال تقديم المعرفة والمعلومات اللازمة. وهذا يدل على تعقيد العلاقات البريطانية مع المسلمين في تلك الفترة، والتي لا يمكن وصفها بالأحكام المطلقة بل أن العداء كان نسبيا على حد تعبير سلايت.

كما ساهمت الآراء المحلية المسلمة في دفع الإدارة البريطانية نحو عدم اتخاذ إجراءات صارمة بحق الحجاج الفقراء. ومع بداية الحرب العالمية الأولى، تحولت سياسة بريطانيا إلى إعادة هؤلاء الحجاج إلى أوطانهم على نطاق واسع، مع تحمل تكاليف حجهم الفعلية (Slight, 2017).

- **حدود السيطرة البريطانية**

تتجلى حدود السيطرة البريطانية أيضًا في تجربة شركة توماس كوك Thomas Cookالتي عُينت كوكيل سفر للحج من الهند بين عامي 1886 و1893. فخروج كوك من سوق سفر الحج يؤكد حدود قدرة بريطانيا على الإشراف على تدفق الحجاج من وإلى مكة ويحلل هذه التجربة في سياق أوسع للصراع التكنولوجي والسياسي بين الدولة العثمانية والقوى الأوروبية على التحكم في وسائل النقل الحديثة البواخر وطرق الحج (Low 2015).

4. المخاوف الأوروبية المشتركة

- **الأوبئة ومسألة الصحة العامة**

شكلت الأوبئة مصدر قلق مشتركًا للقوى الأوروبية الاستعمارية. ففي عام 1865، كان وباء الكوليرا في الحجاز شديدًا لدرجة أن آثاره وصلت إلى أوروبا وغرب الولايات المتحدة ((Tagliacozzo, 2013، بعدما كان المؤتمر الدولي للصحة في باريس العام 1851 قد عقد لمناقشة الضوابط الصحية المتعلقة بالحج، حيث ادعت فرنسا لنفسها الريادة في مجال التحكم في الصحة خلال مواسم الحج (Ryad, 2017).

وأنشئت محطات الحجر الصحي مثل محطة كمران في البحر الأحمر عام 1881، على الساحل الشمال لليمن حاليا من طرف السلطات العثمانية، والتي أصبحت موقعًا لمراقبة الحجاج من حيث الحالات الصحية وانتشار الامراض وكذلك الأحوال والسياسة على حد سواء. وسرعان ما تحولت جزيرة إلى مستعمرة بريطانية سنة 1947م حيث يشير (Alexanderson 2011) إلى أن البريطانيين أنشأوا فيها محطة إذاعية مجهزة ومنطقة هبوط كانت تزورها الطائرات الحربية البريطانية بانتظام، مما أثار مخاوف الهولنديين من استخدامها كمركز للتجسس.

- **السياسة والمراقبة**

لم تكن المخاوف الأوروبية مقتصرة على الجانب الصحي فقط، بل امتدت إلى الجانب السياسي. ففي المستعمرات الفرنسية بأفريقيا، حاولت السلطات أحيانًا تبرير منع الحج أمام الرأي العام عندما بدا أن ذلك هو الخيار الوحيد لمنع المسامين من الحج. (Diawara, 2012) وفي الهند، تطورت سياسة المراقبة بشكل متزايد بسبب الخوف من الجهاد و" التطرف".(Mishra, 2011) [5]

أثارت ظاهرة الحج خوف القوى الأوروبية من "عدوى مزدوجة" للحج: العدوى الأيديولوجية المناهضة للاستعمار والعدوى البكتيرية نقلاً عن، وكانت بريطانيا وهولندا تلعبان الدور الأكبر في إدارة هذا المجال في شبه الجزيرة العربية بسبب العدد الكبير من الرعايا المستعمرين الذين يؤدون الحج .(Ryad, 2017)

5. أشكال المقاومة والمناهضة الإسلامية للسياسات الاستعمارية للحج

[5] - يستعمل الكتاب الغربيون مصطلحات لا تتوافق مع الحقيقة، بل تخدم مصالحهم، فمصطلح التطرف أو الإرهاب غير دقيق لا تاريخيا ولا واقعيا ولا عقلا، بل هو ضمن مفردات الدعاية الاستعمارية الغربية، وكل ما في الأمر أنّ ها مجرد تهم لكل من يحاول النضال والجهاد من أجل التحرر، ومناهضة الاستعمار والتسلط.

لم تكن سياسات الإمبراطوريات الأوروبية تجاه الحج تمارس في فراغ، بل واجهت أشكالًا متعددة من المقاومة والمناهضة من قبل المسلمين، سواء من الرعايا المستعمرين أو من السلطات العثمانية والسكان المحليين في الحجاز. تتنوع هذه المقاومة بين المقاومة المباشرة، والمقاومة المؤسساتية عبر العمل داخل الأجهزة الاستعمارية، والمقاومة الثقافية والمعرفية، والمقاومة اليومية.

- **المقاومة المسلحة والمواجهة المباشرة**

تعود جذور المقاومة الإسلامية للتدخل الأوروبي في الحج إلى القرن السادس عشر، حيث واجهت السفن البرتغالية مقاومة مسلحة من السفن الإسلامية التي كانت مجهزة بالمجاهدين للتصدي للهجمات على الحجاج من طرف القوى الاستعمارية من جهة والقراصنة من جهة أخرى. (Pearson, 1994)، وقد تطورت هذه المقاومة لاحقًا لتشمل مقاومة دبلوماسية وسياسية. وفي هذا السياق، يذكر سلايت كيف أن السلطات العثمانية في الحجاز، ممثلة في شريف مكة، غالبا ما كانت تبدي مقاومة للوجود البريطاني في المنطقة. فعندما حاول القبطان البريطاني هوم بوفام Home Riggs Popham سنة 1800 التفاوض مع شريف مكة للحصول على امتيازات تجارية، قوبلت محاولاته بالرفض، حيث كان الشريف لا يثق بالبريطانيين لكونهم مسيحيين واعتبرهم تهديدًا اقتصاديًا للتجارة الحجازية. (Slight 2017)

- **المقاومة عبر العمل المؤسساتي داخل الإدارة الاستعمارية**

من المفارقات اللافتة التي يبرزها سلايت أن بعض أشكال المقاومة للسياسات الاستعمارية للحج تمت من داخل الأجهزة الإدارية البريطانية نفسها. فقد كان للموظفين المسلمين في القنصلية البريطانية بجدة دور محوري في التأثير على

السياسات المتعلقة بالحجاج الفقراء، حيث ساهموا في دفع الإدارة البريطانية نحو سياسة "عدم التدخل" بدلاً من اتخاذ إجراءات صارمة. ويصف تلك المساهمة بأنها "تأثير كبير" حيث "أثر المسلمون بشكل كبير في الموقف الرسمي المتمثل في عدم اتخاذ إجراءات بحق هؤلاء الحجاج". وهذا يمثل شكلاً من أشكال المقاومة الناعمة التي أعاقت قدرة الإدارة الاستعمارية على بسط سيطرتها الكاملة على الحج. (Slight 2017)

كما يصف سلايت هذا الجانب في كتابه، مشيرًا إلى أن هؤلاء الموظفين المسلمين كانوا "وسطاء ثقافيين cultural intermediaries "لعبوا دورًا حاسمًا في تشكيل المعرفة الاستعمارية وفي توجيه السياسات. وكان من بين هؤلاء شخصيات مثل مهدي علي خان الذي أسهم كثيرا في مفاوضات القبطان بوفام غير المباشرة مع شريف مكة .(Slight, 2017)

- **شبكات عموم الإسلام والمقاومة السياسية**

شكلت شبكات التضمن الإسلامPan-Islamism d التي انطلقت من الحجاز مصدر قلق كبير للقوى الاستعمارية الأوروبية. فقد كان المسؤولون الاستعماريون يخشون من تحول الحج إلى منصة لنقل الأفكار المناهضة للاستعمار إلى المستعمرات ويشير عمر رياض إلى أن "الحج والمراكز التعليمية الدينية خلقت شبكات عابرة للحدود، وشبكات إسلامية مناهضة للاستعمار كانت مصدر خوف للمسؤولين الاستعماريين" .(Ryad, 2017: p 4) كما أنّ هذه الشبكات كانت تمثل "حركة عموم الإسلام" التي استخدمها الزعماء الدينيون والسياسيون والمناضلون في العالم الإسلامي لمقاومة الهيمنة الاستعمارية، معتمدين على الحج كمنصة للتواصل والتنسيق. وقد دفع هذا القلق السلطات الاستعمارية إلى تكثيف المراقبة على الحجاج، مما يؤكد أن هذه الشبكات كانت تشكل مقاومة فعالة تستدعي ردود فعل استعمارية متزايدة.

- **المقاومة المعرفية والثقافية**

تمثلت المقاومة أيضًا في إنتاج المعرفة والمرويات الإسلامية المضادة للخطاب الاستعماري. ففي الهند، على سبيل المثال، ظهرت كتابات ومراسلات من علماء مسلمين تعبر عن رفضهم للتدخل البريطاني في شؤون الحج، كما أن وجود تقارير متعددة وأحيانًا متضاربة حول الحجاج الفقراء، أنتجها مسؤولون بريطانيون ومسلمون على حد سواء، يعكس حالة من "المقاومة المعرفية" حيث لم تستطع الإدارة الاستعمارية فرض رواية واحدة ومطلقة حول الحج. (Slight, 2017)

لقد اتخذت المقاومة الإسلامية في المملكة المتحدة أشكالًا متعددة، منها "المقاومة المعرفية epistemic resistance "التي تجلت في إنتاج معرفة بديلة تتحدى المعرفة الاستعمارية، ومن خلال استخدام المؤسسات الدينية والقانونية الإسلامية للتفاوض مع السلطات الاستعمارية. (Hopkins 2014)

- **المقاومة اليومية واستمرار الممارسة الدينية**

يمثل استمرار تدفق الحجاج الفقراء بين الهند والحجاز رغم المحاولات البريطانية للحد منه شكلاً من أشكال المقاومة اليومية. فالعجز البريطاني عن "وقف تدفق الحجاج الفقراء، "يؤكد أن الممارسة الدينية للمسلمين كانت تتحدى الإرادة الاستعمارية في كثير من الأحيان. ويصف سلايت هذا الوضع بأنه "عجز" و"عدم قدرة" على تنفيذ إجراءات إدارية فعالة، مما يعكس قوة الإرادة الشعبية واستمرارية الممارسة الدينية رغم الضغوط الاستعمارية. (Hopkins, 2014)

وتشير دراسة شودري حول الحج في الفترة الانتقالية من الإمبراطورية المغولية[6] إلى الاستعمار البريطاني إلى أن استمرارية ممارسة الحج رغم التحولات السياسية

[6] - **بادشاهي مغول**: يُعرف الاسم الرسمي لسلطنة المغول في الهند في المصادر الفارسية والعثمانية بـ"المملكة المغولية" أو "المملكة التيمورية في الهند"، بينما في الوثائق الرسمية داخل البلاط كان يُستخدم لقب "پادشاهِ مغول" (باللغة الفارسية: مغل بادشاهی)، أما وصف هذه الدولة بإمبراطورية فليس وصفا دقيقا بل مجرد هيمنة ثقافية علمية ضمن الهيمنة الاستعمارية الشاملة.

الكبرى كانت شكلاً من أشكال "المقاومة الثقافية" Cultural resistance التي حافظت على هوية المجتمعات المسلمة في مواجهة التغيير والطمس الاستعماري. (Choudhury, 2024)

باستعراض الأشكال السابقة، يمكن القول إن المقاومة الإسلامية للسياسات الاستعمارية للحج تنوعت بين المقاومة المسلحة التي تجلت في التصدي للهجمات البرتغالية على سفن الحجاج، والمقاومة المؤسساتية التي مارسها الموظفون المسلمون داخل الإدارة البريطانية للتأثير على السياسات، وشبكات التضامن الإسلامي التي شكلت تهديدًا سياسيًا للهيمنة الأوروبية، والمقاومة المعرفية التي تجسدت في إنتاج روايات بديلة عن الحج، والمقاومة اليومية التي تمثلت في استمرار تدفق الحجاج ومنهم الحجاج الفقراء رغم العوائق الإدارية والصعوبات المالية. وقد شكلت هذه الأشكال مجتمعة تحديات حقيقية للقوى الاستعمارية، وأظهرت أن الحج ظل مجالًا للفاعلية الإسلامية حتى في ذروة الهيمنة الاستعمارية.

خلاصة

كانت العلاقة بين الدول الأوروبية الاستعمارية وبخاصة بريطانيا والحج علاقة معقدة ومتشابكة، جمعت بين المصالح الاقتصادية السيطرة على مراكز الشحن وطرق النقل والتجارة، والمخاوف الصحية من الأوبئة، والقلق السياسي من الشبكات المناهضة للاستعمار. وقد تجلى ذلك بوضوح في إنشاء محطات الحجر الصحي مثل كمران، وعقد المؤتمرات الصحية الدولية، وتكثيف المراقبة القنصلية في جدة.

ورغم المحاولات الأوروبية المتكررة لبسط السيطرة على الحج، إلا أن هذه المحاولات واجهت حدودًا وعوائق متعددة. فقد أظهرت حالة الحجاج الفقراء في الهند البريطانية عجزًا إداريًا واضحًا، حيث لم تنجح السلطات البريطانية في وضع سياسة حازمة للتعامل مع هذه الفئة، بل اتسمت سياساتها بالتناقض وعدم اليقين. كما أن تجربة شركة طوماس كوك في تنظيم الحج كشفت حدود القدرة البريطانية على فرض نظام تجاري وإداري على هذا القطاع، وفشل السياسية البريطانية ككل.

لم تكن المعرفة الاستعمارية عن الحج نتاجًا أوروبيًا بحتًا، بل كانت نتيجة تفاعل وتشابك بين المسؤولين الاستعماريين والموظفين والمتعاونين المسلمين المحليين. وقد ساهم الموظفون المسلمون في القنصلية البريطانية بجدة دورًا حاسمًا في تشكيل هذه المعرفة وفي التأثير على السياسات، مما يعكس تعقيد العلاقات البريطانية مع المسلمين.

تجلت أشكال المقاومة الإسلامية للسياسات الاستعمارية للحج في مستويات متعددة ومتنوعة. فإلى جانب المقاومة المسلحة المباشرة التي واجهت البرتغاليين في المحيط الهندي، ظهرت مقاومة مؤسسية من داخل الإدارة الاستعمارية نفسها من خلال الموظفين المسلمين الذين ساهموا في توجيه السياسات نحو عدم التدخل. كما شكلت شبكات التعاون والتضامن الإسلامي مصدر قلق دائم للسلطات الاستعمارية، حيث كانت تنقل الأفكار المناهضة للاستعمار عبر الحجاج والطلاب الذين يدرسون في الحجاز، وتمثلت المقاومة المعرفية في إنتاج روايات وتقارير بديلة تحدت الخطاب الاستعماري، بينما تجسدت المقاومة اليومية في استمرار تدفق الحجاج الفقراء رغم العوائق الإدارية.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية عصر استعمار المشرق خصوصا، بدأ الحج يأخذ أشكالًا جديدة مع ظهور السفر الجوي وتغير طبيعة العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي، ظل الإرث الاستعماري في تنظيم وإدارة الحج حاضرًا في السياسات الدولية المتعلقة بالحج والصحة العامة والمراقبة الحدودية.

فظاهرة الحج هي مثالًا حيًا على علاقة التشابك في التاريخ العالمي، حيث تتداخل فيه العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وتلتقي فيه مصالح البلدان الاستعمارية مع تطلعات الملايين من المسلمين حول العالم، وتتجلى فيه قدرة المجتمعات المسلمة على المقاومة والتكيف والتأثير رغم اختلال موازين القوة.

قائمة المراجع

1. Alexanderson, K. 2011. Fluid mobility: Global maritime networks and the Dutch empire, 1918–1942. Unpublished doctoral dissertation. Rutgers, The State University of New Jersey.

2. Choudhury, R. 2024. *Hajj across empires: Pilgrimage and political culture after the Mughals, 1739–1857*. Cambridge University Press.

3. Diawara, M. A. 2012. *Islam and public health: French management of the Hajj from colonial Senegal and Muslim responses beginning in 1895*. Unpublished doctoral dissertation. Michigan State University.

4. Freitag, U. 2012. Helpless representatives of the great powers? Western consuls in Jeddah, 1830s to 1914. *The Journal of Imperial and Commonwealth History*, 403, 357-381.

5. Hopkins, B. D. 2014. Islam and resistance in the British empire. In D. Motadel Ed., *Islam and the European empires* pp. 150–167. Oxford University Press.

6. Low, M. C. 2015. *The mechanics of Mecca: The technopolitics of the late Ottoman Hijaz and the colonial Hajj* Unpublished doctoral dissertation. Columbia University.

7. Mishra, S. 2011. *Pilgrimage, politics, and pestilence: The Haj from the Indian subcontinent 1860–1920*. Oxford University Press.

8. Motadel, D. Ed. 2014. *Islam and the European empires*. Oxford University Press.

9. Pearson, M. N. 1994. Pious passengers: The Hajj in earlier times. Hurst & Company.

10. Ryad, U. 2017. Introduction: The Hajj and Europe in the pre-colonial and colonial age. In U. Ryad Ed., *The Hajj and Europe in the age of empires* pp. 1–14. Brill.

11. Singha, R. As cited in Slight, 2017. Pauper pilgrims [Reference details not provided in the original document].

12. Slight, J. 2014. British imperial rule and the Hajj. In D. Motadel Ed., *Islam and the European empires* pp. 53–72. Oxford University Press.

13. Slight, J. 2015. *The British Empire and the Hajj: 1865–1956*. Harvard University Press.

14. Tagliacozzo, E. 2013. Hajj in the time of cholera: Pilgrim ships and contagion from Southeast Asia to the Red Sea. In J. L. Gelvin & N. Green Eds., Global Muslims in the age of steam and print pp. 103–120. University of California Press.